الباب الثانى والعشرون

فى القول فى السماع قبولاً وإيثارًا

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يستمِعُون القَوْل فيَتَّبِعُون أحْسَنَه أولئِكَ الَّذِينَ هَـدَاهُمُ اللهُ وأولئِكَ هُمْ أولو الأَلْبابِ﴾[1]. قيل: أحسنه: أى أهداه وأرشده. وقال عزّ وجلّ: ﴿وإذا سَمِعُوا مَا أنْزِل إلى الرَّسُولِ تَرى أعْيُنهمُ تفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[2].

هذا السماعُ هو السماعُ الحقُّ، الذى لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكومٌ لصاحبه بالهداية واللُّب، وهذا سماعٌ تَرِدُ حرارتُه على بَرْد اليقين فتفيض العين بالدمع؛ لأنه تارة يثير حزنًا، والحزن حار، وتارة يثير شوقًا والشوق حار، وتارة يثير ندمًا والندم حار، فإذا أثار السماعُ هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرْد اليقين أبْكى وأدْمع؛ لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرًا ماءً؛ فإذا ألمّ السماعُ بالقلب تارة يخِفُّ إلمامه، فيظهر أثره فى الجسد ويقشعرُّ منه الجلد قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُود الَّذِينَ يَخْشَوْن رَبَّهُمْ﴾[3].

وتارةً يعظم وقعه، ويتصوّب[4] أثرُه إلى فوق نحو الدماغ كالمخبر للعقل بعِظم وقع المتجدّد الحادث، فتتدفق منه العين بالدمع وتارةً يتصوّب أثره إلى الروح فتموج منه الروح موجًا يكاد تضيق عنه نطاق القالب، فيكون من ذلك الصياح والاضطراب وهذه كلُها أحوالٌ يجدها أربابها من أصحاب الحال، وقد يحكيها بدلائل هوى النفس أرباب المجال.

روى أن عمر رضى الله تعالى عنه، كان ربّما مرّ بآية فى ورده، فتخنقُه العبرة، ويسقط، ويلزم البيتَ اليومَ واليومين حتى يُعاد ويُحْسَبَ مريضًا؛ فالسماع يستجلب الرحمة من الله الكريم.

روى زيد بن أسلم قال: قرأ أبىٌّ بن كعب عند رسول الله ﷺ فَرقُّوا، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) آية ١٨ من سورة الزمر.

(٢) آية رقم ٨٣ من سورة المائدة.

(٣) آية رقم ٢٣ من سورة الزمر.

(٤) يتنزل.

« اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة من الله تعالى»[١].

وردت أم كلثوم قالت: قال رسول الله ﷺ :

«إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه الذنوب كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها»[٢]. وورد أيضًا :

«إذا اقشعر الجلد من خشية الله حَرَّمه الله تعالى على النار»[٣].

وهذه جملة لا تنكر، ولا اختلاف فيها، إنما الاختلاف فى استماع الأشعار بالألحان.

وقد كثرت الأقوال فى ذلك وتباينت الأحوال:

فمن مُنكر يُلحقه بالفسق، ومن مُولع به يشهد بأنه واضح الحقّ، ويتجاذبان فى طرفى الإفراط والتفريط.

قيل لأبى الحسن بن سالم: كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد، وسرى السقطى، وذو النون يسمعون؟

فقال: كيف أُنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خيرٌ منّى؟ فقد كان جعفر الطيّار يسمع، وإنما المنكَر: اللهو واللعب فى السماع وهذا قول صحيح.

أخبرنا الشيخ طاهر بى أبى الفضل، عن أبيه الحافظ المقدسى قال: أخبرنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافى قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال: حدثنا أبو بكر بن وثاب وقال: حدثنا عمرو بن الحارث قال: حدثنا الأوزاعى، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة رضى الله تعالى عنها:

أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بدفين ورسول الله ﷺ مُسجىٌ بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبو بكر، فإنها أيام عيد»[٤].

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: رأيت رسول الله ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا أسْأَمُ[٥]..

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس بسند صحيح.

(٢) رواه الطبرانى عن العباس بسند ضعيف ورواه أبو الشيخ فى الثواب والبيهقى واللفظ له. ومعنى تحاتت: تساقطت.

(٣) وردت أحاديث صحيحة فى عدم دخول النار لمن بكى من خشية الله.

(٤) الصحيحين

(٥) الصحيحين.

وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكيّ، رحمه الله تعالى، ما يدلّ على تجويزه، ونُقِل عن كثير من السلف: صحابيّ، وتابعيّ، وغيرهم.

وقول الشيخ أبى طالب المكيّ يعتبر لوفور علمه وكمال حاله وعلمه بأحوال السلف، ومكان درعه وتقواه وتحريّه الأصوبَ والأولى؛ وقال: فى السماع: حرامٌ، وحلالٌ، وشبهةٌ؛ فمن سمعه بنفْس مُشاهدةٍ شهوةً وهوى فهو حرام، ومن سمعه بمعقوله على صفةِ مُباحٍ من جارية أو زوجة كان شبهةً لدخول اللهو فيه، ومن سمعه بقلب يشاهد معانى تَدلّه على الدليل وتُشهده طرقات الجليل فهو مباحٌ. وهذا قول الشيخ أبى طالب المكىّ وهو الصحيح.

فإذن لا يطلق القول بمنعه وتحريمه، والإنكار على من يسمع كفعل القرّاء المتزهّدين المبالغين فى الإنكار، ولا يُفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض المُتَهترين[1] به المهملين شروطَه وآدابه المقيمين على الإصرار.

ونفصّل الأمر فيه تفصيلاً، ونوضّح الماهية فيه تحريمًا وتحليلاً؛ فأمّا الدفّ، والشبابة[2]، وإن كان فيهما فى مذهب الشافعىّ فسحة، فالأوْلى تركهما، والأخذ بالأحوط والخروجُ من الخلاف.

وأما غير ذلك، فإن كان من القصائد فى ذكر الجنّة والنار، والتشويق إلى دار القرار، ووصفِ نِعم الملك الجبّار، وذكر العباذات والترغيب فى الخيرات، فلا سبيل إلى الإنكار، ومن ذلك القبيل، قصائد: الغزاة، والحجاج فى وصف الغزو والحج؛ مما يثير كامنَ العزم من الغازى، وساكنَ الشوق من الحاجّ.

وأمّا ما كان من ذكر القدود والخدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانةِ الاجتماعُ لمثل ذلك.

وأمّا ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصدّ مما يقُربُ حمله على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلوّن أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين؛ فمن سمع ذلك وحَدثَ عنده ندمٌ على ما فات أو تجدّد عنده عزمٌ لما هو آت فكيف ينكون سماعه[3]؟، وقد قيل: إن بعض الواجدين كان يقتات السماع ويتقوّى به على الطىّ والوصال، ويثير

---

(١) وفى نسخة: المستهترين، يقال فلان مستهتر بالشىء، أى: مولع به.

(٢) نوع من الزمار.

(٣) وفى نسخة: فكيف ينكر سماعه.

عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوعِ؛ فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه، كأن يسمع الحادى يقول مثلاً:

أتـــوب إليـــك يا رحمـــن إنّـــى أســأت وقــد تضــاعفت الذنـــوب

فأمّـا مـن هــَوى ليلــى وحُبّــى زيارتَهــا فإنّـــى لا أتـــــوب

فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات فى أمر الحق إلى الممات، يكون فى سماعه هذا ذاكرًا لله تعالى.

كما قال بعض أصحابنا: كنا نعرف مواجيد أصحابنا فى ثلاثة أشياء: عند المسائل، وعند الغضب، وعند السماع.

وقال الجنيد[1]: تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواضع: عند الأكل؛ لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة؛ لأنهم يتحاورون فى مقامات الصدّيقين والنبيين، وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقًا.

وسئل رويم عن وَجْدِ الصوفية عند السماع، فقال: يتنبهون للمعانى التى تَقْرُب عن غيرهم، فَتُشير إليهم إلىّ.. إلىَ.. فيتنعمون بذلك من الفرح، ويقع الحجاب للوقت فيعود ذلك الفرح بكاءً، فمنهم من يمزّق ثيابه، ومنهم من يبكى، ومنهم من يصيح.

أخبرنا أبو زرعة، إجازة، عن ابن خلف، إجازة، عن السلمى قال: سمعت أبا سهل محمد بن سليمان يقول:

المستمع بين استتار وتجلٍ؛ فالاستتار يورث التلهّب، والتجلّى يورث المزيد، فالاستتار يتولّد منه حركات المريدين، وهو محل الضعف والعجز، والتجلّى يتولّد منه السكون للواصلين، وهو محل الاستقامة والتمكين. وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلاّ الذبول تحت موارد الهيبة.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى: سمعت جدّى يقول:

المستمع ينبغى أن يستمع بقلب حىٍّ ونفس مَيْتَةٍ، ومن كان قلبه ميتًا ونفسه حيّةً لا يحل له السماع.

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز، مولده ووفاته ببغداد سنة ٢٩٧هـ/ ٩١٠م وعرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخزَّ. قال أحد معاصريه: ما رأت عيناى مثله، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحاته، والمتكلمون لمعانيه وهو أول من تكلم فى علم التوحيد ببغداد، وقال ابن الأثير فى وصفه: إمام الدنيا فى زمانه، وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾[١] الصوت الحسن.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«لله أشدُّ أذنًا[٢] بالرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قَيْنةٍ[٣] إلى قينته»، نُقل عن الجنيد قال: رأيت إبليس فى النوم، فقلت له: هل تظفر من أصحابنا بشىء أو تنالُ منهم شيئًا؟

فقال: إنه يعسر على شأنُهم ويعظم علىّ أن أصيب منهم شيئًا إلاّ فى وقتين، قلت: أىّ وقت؟

قال: وقت السماع وعند النظر فإنّى أسترقُّ منهم فيه وأدخل عليهم به.

قال: فحكيت رؤياى لبعض المشايخ، فقال: لو رأيتُه قلتُ له يا أحمق من سمع منه إذا سمع، ونظر إليه إذا نظر أتربح أنت عليه شيئًا أو تظفر منه بشىء؟ فقلت: صدقت.

وردت عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت:

«كانت عندى جارية تُسْمِعُنى، فدخل رسول الله ﷺ وهى على حالها، ثم دخل عمر ففرّت، فضحك رسول الله ﷺ، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله؟ فحدّثه حديث الجارية، فقال: لا أبرح حتى أسمع ما سمع رسول الله ﷺ، فأسمعته».

وذكر الشيخ أبو طالب المكّى قال:

كان لعطاء جاريتان تُلَحّنان، وكان إخوانه يستمعون إليهما، وقال: أدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يُسمعن التلحين أعدّهن للصوفية.

وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبى طالب، وعندى اجتناب ذلك هو الصواب.

وهو لا يَسْلم إلاّ بشرط طهارة القلب، وغَضّ البصر، والوفاء بشرط قوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ﴾[٤].

وما هذا القول من الشيخ أبى طالب المكىّ إلاّ مستغرَب عجيب، والتنزّه عن مثل ذلك هو الصحيح.

---

(١) آية رقم ١ من سورة فاطر.

(٢) أذنا: استماعًا.

(٣) القينة: الأمةُ مغنية كانت أو غير مغنية والحديث رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقى فى الشعب عن فضالة بن عبيد بسند صحيح.

(٤) الآية ١٩ من سورة غافر.

وفى الحديث: فى مدح داود عليه السلام أنه كان حسن الصوت بالنياحة على نفسه وبتلاوة الزبور، حتى كان يجتمع الإنسُ والجنُّ والطير لسماع صوته، وكان يُحمل من مجلسه آلاف من الجنائز[١].

وقال عليه السلام فى مدح أبى موسى الأشعرى:

«لقد أعطى مزمارًا من مزامير آل داود»[٢].

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن من الشعر لحكمة»[٣].

ودخل رجل على رسول الله ﷺ وعنده قوم يقرءون القرآن، وقوم يُنْشدون الشعر، فقال: يا رسول الله قرآن وشعر؟ فقال: «من هذا مرّة، ومن هذا مرّة».

وأنشد النابغة[٤] عند رسول الله ﷺ أبياته التى فيها:

ولا خيرَ فى حِلْمٍ إذا لم يكن له بَوادِرُ تَحمى صفوَه أنْ يُكَدَّرا

ولا خير فى أمرٍ إذا لم يكن له حكيمٌ إذا ما أوْرَدَ الأمرَ أصدرا

فقال له رسول الله ﷺ: «أحسنت يا أبا ليلى لا يَفْضِض الله فاك»[٥].

فعاش أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس نفرًا وكان رسول الله ﷺ يضع لحسّان[٦] منبرًا فى المسجد، فيقوم على المنبر قائمًا يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ[٧].

---

(١) قال العراقى: لم أجد له أصلاً.

(٢) البخارى من حديث أبى بن كعب.

(٣) أحمد وأبو داود.

(٤) هو أبو ليلى حسان بن قيس بن عبد الله الجعدى العامرى: شاعر مفلق، صحابى، من المعمرين. اشتهر فى الجاهلية، وسمى «النابغة» لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله، وكان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم وأدرك صفّين فشهدها مع على. وقد مات بأصبهان ٥٠هـ/ ٦٧٠م بعد أن جاوز المائة. [انظر الإعلام للزركلى ج١ ص٢١٩، والإصابة٣: ٥٣٧، وشرح شواهد المغنى للسيوطى ص ٢٠٩].

(٥) البزار وفيه يعلى بن الأشد وهو ضعيف.

(٦) هو حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجى الأنصارى: الصحابى، شاعر النبى صلى الله عليه وسلم، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وعمى قبل وفاته. قال أبو عبيدة: فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى فى النبوة وشاعر اليمانيين فى الإسلام، وكان شديد الهجاء فحل الشعراء توفى بالمدينة سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م.

(٧) رواه البخارى تعليقًا وأبو داود والترمذى والحاكم متصلاً من حديث عائشة قال الترمذى حسن صحيح.

ويقول النبى ﷺ: «إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ»[١].

ورأى بعض الصالحين أبا العباس الخضر قال: فقلت له: ما تقول فى السماع الذى يختلف فيه أصحابنا؟

فقال: هو الصفاء الزُلال لا يثبت عليه إلاّ أقدام العلماء.

ونقل عن ممشاد الدينورى قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فقلت: يا رسول الله، هل تنكر من هذا السماع شيئًا؟

فقال: ما أنكره، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختمون بعده بالقرآن.

فقلت: يا رسول الله إنهم يؤذونى وينبسطون، فقال: احتملهم يا أبا علىّ هم أصحابك. فكان ممشاد يفتخر ويقول: كنّانى رسول الله ﷺ، وأمّا وجه الإنكار فيه فهو أن يُرى جماعةٌ من المريدين دخلوا فى مبادئ الإرادة ونفوسهم ما تمرّنت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم ويعلمون ما لهم وعليهم مشتغلين به.

حُكى أنّ ذا النون لمّا دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوّال، فاستأذنوه أن يقول شيئًا، فأذن له، فأنشد القوّال:

صغيرٌ هَواك عذّبنى فكيف به إذا احتنكا[٢]
وأنت جمعت من قلبى هَوَىً قد كان مُشتركا
أما تَرْثى لمكتئب إذا ضحك الخلىُّ بكى

فطاب وقته وقام وتواجد، وسقط على جبهته والدم يقطر من جبهته ولا يقع على الأرض، ثم قام واحد منهم، فنظر إليه ذو النون فقال: اتق الله الذى يراك حين تقوم. فجلس الرجل، وكان جلوسه لموضع صدقه وعلمه أنه غير كامل الحال، غيرُ صالح للقيام متواجدًا، فيقوم أحدهم من غير تدبرٍ بصيرةٍ وعلمٍ فى قيامه؛ وذلك إذا سمع إيقاعًا موزونًا بسمعٍ يؤدى إلى طبعٍ موزون، فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون والإيقاع الموزون،

---

(١) فى الصحيحين أن عائشة قالت إن حسانًا كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى البخارى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله هل سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: يا حسان أجب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أيده بروح القدس قال نعم – والحديث كله رواه أبو داود رقم ٥٠١٥.

(٢) قوى واستحكم.

وينسبل[١] حجاب نفسه المنبسطِ بانبساط الطبع الموزون على وجه القلب، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع فيقوم يرقص رقصًا موزونًا ممزوجًا بتصنّع، وهو محرّم عند أهل الحق، ويَحسب ذلك طيبةً للقلب، وما رأى وجة القلب وطيبته[٢] لله تعالى. ولعمرى، وهو طيبةُ القلب، ولكن قلب مُلَوَّن بلون النفس، ميّال إلى الهوى، موافق للردى، لا يهتدى إلى حسن النيّة فى الحركات ولا يعرف شروط صحة الإرادات، ولمثل هذا الراقص قيل: الرقصُ نقصٌ؛ لأنه رقص مصدره الطبع غير مقترن بنيّة صالحة، لا سيما إذا انضاف إلى ذلك شوبُ حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرّب إلى بعض الحاضرين من غير نيّة، بل بدلالة نشاط النفس من المعانقة وتقبيل اليد والقدم وغير ذلك من الحركات التى لا يعتمدها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوّف إلاّ مجرّد زىٍ وصورة، أو يكون القوّال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه وتستلذ ذلك وتضمر خواطر السوء، أو يكون للنساء إشرافٌ على الجمع وتتراسل البواطن المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد، فيكون ذلك عَيْنَ الفسق المجمع على تحريمه، فأهل المواخير[٣] حينئذٍ أرجى حالاً ممن يكون هذا ضميره وحركاته؛ لأنهم يرون فسقهم، وهذا لا يراه، ويُريه عبادةً لمن لا يعلم ذلك، أفترى أحدًا من أهل الديانات يرضى بهذا ولا ينكره؟!! فمن هذا الوجه توجُّه للمنكِر الإنكارُ، وكان حقيقًا بالاعتذار، فكم من حركاتٍ موجبةٍ للمقت، وكم من نهضات تُذهب رونق الوقت، فيكون إنكار المنكر على المريد الطالب يمنعه عن مثل هذه الحركات، ويحذره من مثل هذه المجالس وهذا إنكار صحيح.

وقد يُرقصُ[٤] بعضَ الصادقين إيقاعٌ ووزنٌ من غير إظهار وجد وحال، ووجهُ نيّته فى ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقراء فى الحركة، فيتحرك بحركة موزونة غير مدّع بها حالاً ووجدًا، يجعل حركته فى طرف الباطل؟ لأنها وإن لم تكن محرّمة فى حكم الشرع كلها غيرُ محللة بحكم الحال؛ لما فيها من اللهو، فتصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التى تجرى عليه من الضحك والمداعبة وملاعبة الأهل والولد، ويدخل ذلك فى باب الترويح للقلب.

---

(١) ينسبل: ينفتح.

(٢) وفى نسخة أخرى: وطيبته بالله تعالى.

(٣) مخر الذئب الشاة إذا شق بطنها؛ والماخور: بيت الريبة، وهو أيضًا الرجل الذى يلى ذلك البيت ويَعود إليه وفى حديث زياد حين قدم البصرة أميرًا عليها، ما هذه المواخير؟ الشراب عليه حرام حتى تسوى بالأرض هدمًا وإحراقًا، هى جمع ماخور، وهو مجلس الريبة، ومجمع أهل الفسق والفساد وبيوتُ الخمارين.

(٤) وفى نسخة: وقد يرقص بعض الصادقين بإيقاع ووزن.

وربّما صار ذلك عبادةً بحسن النيّة إذا نوى به استجمام[١] النفس، كما نقل عن أبي الدرداء أنه قال:

إنّي لأستجمُّ نفسي بشيء من الباطل ليكون ذلك عونًا لي على الحق.

ولوضع الترويح كرهت الصلاة في أوقات ليستريح عُمّال الله، وترتفق[٢] النفوس ببعض مآربها من : ترك العمل وتَسْتَطْيب أوطان المُهَل.

والآدمي بتركيبه المختلف، وترتيب خَلقه المتنوِّع بتنوع أصول خِلقته - وقد سبق شرحه في غير هذا الباب - لا تفي قواه بالصبر على الحق الصرف، فيكون التفسّح في أمثال ما ذكرناه من المباح الذي ينزع إلى لهو مًّا باطلاً يستعان به على الحق؛ فإن المباح وإن لم يكن باطلاً في صيغة الشرع - لأن حدَّ المباح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه - ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال.

ورأيت في بعض كلام سهل بن عبد الله[٣] يقول في وصفه للصادق.

الصادق يكون جهله فريدًا لعلمه، وباطله فريدًا لحقّه، ودنياه مزيدًا لآخرته؛ ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ النساءُ ، ليكون ذلك خطَّ نفسه الشريفة الموهوب لها حظوظَها، الموفَّر[٤] عليها حقوقها لموضع طهارتها وقد سها؛ فيكون ما هو نصيب للباطل الصرف في حق الغير من المباحات المقبولة برخصة الشرع المردودةِ بعزيمة الحال في حقّه ﷺ مُتَّسِمًا بسمة العبادات.

وقد ورد في فضيلة النكاح ما يدلّ على أنه عبادة، ومن ذلك من طريق القياس اشتمالُه على المصالح الدينية والدنيوية على ما أطنب في شرحه الفقهاء في مسألة التخلّي لنوافل العبادات؛ فإذن يخرج هذا الراقص بهذه النيّة المتبرئ من دعوى الحال في ذلك من إنكار المنِكر، فيكون رقصه لا عليه ولا له، وربما كان رقصه بحسن النية في الترويح يصير عبادةً، سيما إن أضمر في نفسه فرحًا بربّه ونظر إلى شمول رحمته وعطفه.

---

(١) استرواح.

(٢) الرفق ضد العنف ورفقت به وارتفعت بمعنى واحد.

(٣) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري أحد أئمة الصوفية حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وكان يسأل عن دقائق الزهد والورع وفقه العبادة وهو ابن عشر فيحسن الإجابة، وكان صاحب كرامات، توفي سنة: ٢٨٣هـ، ومن أقواله: ما أعطى أحد شيئًا أفضل من علم يستزيد به افتقارًا إلى الله.

(٤) المعجّل .

ولكن لا يليق الرقص بالشيخ، ومن يُقْتَدى بـه، لـما فيـه مـن مشـابهة اللـهو، واللـهو لا يليق بمنصبهم ويباين حالَ المتمكن مثلُ ذلك.

وأما وجه منع الإنكار في السماع؛ فهو أن المنكِر للسماع على الإطلاق من غير تفصيـل لا يخلو من أحد أمور ثلاثة :

إمّا جاهل بالسنن والآثار، وإما مغتّر بما أتيح له من أعمال الأخيار، وإما جامد الطبع لا ذوق له فَيُصرُّ على الإنكار، وكلّ واحد من هؤلاء الثلاثة يُقَابَل بما سوف يُقْبَل :

أما الجاهل بالسنن والآثار فيُعرَّف بما أسلفناه من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها، وبالأخبار، والآثارِ الواردة في ذلـك، وفـي حـــــركة بعـض المتحركـين يُعَـرَّفُ رُخُصـةَ رسول الله ﷺ للحبشة في الرقص. ونظرِ عائشة رضى الله عنها إليهم مع رسول الله ﷺ .

هذا إذا سلمت الحركةُ من المكاره التي ذكرناها .

وقد روى أن رسول الله ﷺ قال لعليّ رضى الله عنه : «أنت مني وأنا منك» فَحجَل[1]. وقال لجعفر «أشبهتَ خَلقي وخُلقي» فَحجل. وقال لزيد «أنت أخونا ومولانـا» فَحَجِـل، وكان حَجل جعفر في قصة ابنة حمزة لمّا اختصم فيها على وجعفرُ وزيد[2].

وأما المنِكر المغرور بما أُتيح له من أعمال الأخيار، فيقال له : تَقَرُّبك إلى الله بالعبـادة لنيتك لا لشُغْل جوارحك بها، ولولا نيةُ قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر، فإنما الأعمال بالنيات ولكل أمرىء ما نوى، والنيّة لنظرك إلى ربك خوْفًا أو رجاء، فالسامع من الشـعر بيتًا يأخذ منهُ معنى يُذكّره ربَّه إمّا فرحًا أو حزنًا، أو انكسارًا أو افتقارًا كيف يقلّب في أنواع ذلك ذاكرًا لربّه، ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصـوت فتفكـر فـي قـدرة الله تعالى وتسويته حنجرة الطائر وتسخيره خلقَه ومنشأ الصوت وتأديته إلى الأسماع كـان فـي جميع ذلك الفكر مسبِّحًا مقدّسًا؛ فإذا سمع صوت آدميّ وحَضَره مثلُ ذلـك الفِكـر وامتـلأ باطنُه ذكرًا وفكرًا كيف يُنْكَر ذلك؟!

حكى بعض الصالحين قال : كنت معتكفًا في جامع «جُدَّة» على البحر، فرأيت يومًا طائفة يقولون في جانب منه شيئًا، فأنكرت ذلك بقلبي وقلت: في بيت مـن بيوت الله تعالى يقولون الشعر! ! فرأيت رسول الله ﷺ في المنام تلـك الليلـة وهـو جـالس فـي تلـك الناحية وإلى جانبه أبو بكر، وإذا أبو بكر يقول شيئًا من القول والنبـي ﷺ يسـتمع إليـه

---

(١) حجل الطائر والغلام وقف على رجل واحدٍ ، والمراد هنا الوثوب والرقص.

(٢) حديث اختصم على وجعفر وزيد بن حارثة في ابنه حمزة الخ.. رواه أبو داود من حديث على بسند حس.

ويضع يده على صدره الكريم كالواجد بذلك، فقلت فى نفسى: ما كان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون، وهذا رسول الله ﷺ يسمع وأبو بكر إلى جنبه يقول، فالتفتَ إلىّ رسولُ الله ﷺ وهو يقول : هذا حقٌّ بحق، أو حق من حَقّ.

بلى، إذا كان ذلك الصوت من أمْرد[١] يُخشى بالنظر إليه الفتنةُ، أو من امرأةٍ غير مَحرم وإن وجد من الأذكار والأفكار ما ذكرنا — يَحرُم سماعه؟ لخوف الفتنة، لا لمجرد الصوت، ولكن يجعل سماع الصوت حريمَ الفتنة ولكل حرامٍ حريمٌ ينسحب عليه حكم المنع لوجه المصلحة: كالقبلة للشاب الصائم؛ حيث جعلت حريمَ حرام الوقاع، وكالخلوة بالأجنبية، وغير ذلك.

فعلى هذا قد تقتضى المصلحةُ المنعَ من السماع إذا عُلم حال السامع ما يؤدّيه إليه سماعُه، فَيُجعل المنعُ حريمَ الحرام،هكذا،وقد يُنْكِر السماعَ جامدُ الطبع عديم الذوق، فيقال له: العِنِّين لايعلم لذّة الوقاع،والمكفوف ليس له بالجمال البارع استمتاعٌ، وغيرُ المصاب لا يتكلّم بالاسترجاع[٢]،فماذا تُنْكِر من محبّ باطنه بالشوق[٣]والمحبة؟!ويرى انحباس روحه الطيارة فى مضيق النفس قفص الأمّارة يمر بروحه نسيم أنس الأوطان، وتلوح له طوالع جنود العرفان،وهو بوجود النفس فى دار الغربة يتجرّع كأس الهجران،يئن تحت أعباء المجاهدة ولاتُحمل عنه سوانح[٤]المشاهدة ولمّا قطع منازل النفس بكثرة الأعمال لايَقْرب من كعبة الوصال ولايُكْشَف له المسْبَل من الحجاب[٥]،فيتروّح بتَنفس الصعداء[٦]ويرتاح باللائح من شدّة البرحاء[٧]،ويقول مخاطبًا للنفس والشيطان وهما المانعان[٨]:

أبَا جَبَلَىْ نَعْمان[٩] باللّه خَلِّيا ... نَسيمَ الصَّبَا يخلُص إلىّ نسيمُها

فإن الصَّبَا ريحٌ إذا ما تنسّمتْ ... على قلب محزون تجلّت همومها

أجدْ بَردها ، أو تَشْفِ منى حرارة ... على كبدٍ لم يبق إلاّ صميمها[١٠]

ألا إنّ أدوائى بليلى قديمةٌ ... وأقْتَلُ داءِ العاشقين قَديمُها

---

(١) الأمرد : الشاب الذى لم تنبت لحيته.

(٢) استرجع عند المصيبة إذ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) إلى الحضرة الإلهية .

(٤) يقول : سنح لى الطير إذا مرّ من ميامنك إلى ميامنك .

(٥) وفى نسخة (المسبل من الحجال) والحجال جمع حجل وهو بيت العروس.

(٦) وفى نسخة (فيتروح بتنفس الصعداء) أن تنفسٌ ممدود

(٧) الشدائد.

(٨) المانعان من مشاهدة الجمال .

(٩) نعمان (بفتح النون) واد فى طريق الطائف.

(١٠) صميم الشىء خالصه.

ولعل المنكر يقول : هل المحبَّة إلاّ امتثال الأمر؟ وهل يُعرف غيرُ هذا، وهل هناك إلاّ الخوف من الله تعالى؟ ويُنكِر المحبّةَ الخاصّة التى تختص بالعلماء الراسخين والأبدال المقرّبين.

ولمّا تقرر فى فهمه القاصر أن المحبة تستدعى مَثالاً وخيالاً، وأجناسًا وأشكالاً أنكرمحبة القوم، ولم يعلم أن القوم بلغوا فى رُتب الإيمان إلى أتمّ من المحسوس، وجادوا من فرط الكشف والعِيان بالأرواح والنفوس.

روى أبو هريرة، رضى الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ .

أنه ذكر غلامًا كان فى بنى إسرائيل على جبل فقال لأمه: مَن خلق السماءَ؟ قالت: الله. قال: من خلق الأرض؟ قالت: الله، قال: من خلق الجبال؟ قالت: الله. قال: من خلق الغيم؟ قالت: الله، فقال: إنّى أسمع لله شأنًا، ورمى بنفسه من الجبل فتقطّع.

فالجمال الأزلى الإلهى منكشف للأرواح غيرُ مُكيَّف للعقل ولا مُفَسَّر للفهم؟ لأن العقل موكّلٌ بعالَمِ الشهادة لا يهتدى من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود، ولا يتطرق إلى حريم الشهود المتجلّى فى طى الغيب المنكشف للأرواح بلا ريب، وهذه الرتبةُ من مطالعة الجمال رتبةٌ خاصة، وأعمُّ منها من رتب المحبّة الخاصة، دون العامة، مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والجلال، والاستقلال بالمنح والنوال، والصفات المنقسمة إلى ما ظهر منها فى الآباد ولازمت الذات فى الآزال.

فللكمال جمال لايُدرك بالحواس، ولا يستنبط بالقياس، وفى مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبّين خُصّوا بتجلّى الصفات، ولهم بحسب ذلك: ذوق، وشوق، ووجد، وسماع.

والأولون منحو قِسطًا من تجلّى الذات فكان وجدهم على قدر الوجود، وسماعهم على حدّ الشهود.

وحكى بعض المشايخ قال:

رأينا جماعة ممن يمشون على الماء والهواء، يسمعون السماع، ويَجدون به، ويتولّهون[1] عنده.

---

(١) يتحيّرون.

وقال بعضهم: كنّا على الساحل، فسمع بعض إخواننا، فجعل يتقلّب على الماء يمرّ ويجيء حتى رجع إلى مكانه.

ونقل أن بعضهم كان يتقلّب على النار عند السماع ولا يحسُّ بها.

ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع، فأخذ شمعةً فجعلها في عينه. قال الناقل: قَرُبْتُ من عينه أنْظُر فرأيت نارًا، أو نورًا يخرج من عينه يَردّ نار الشمعة.

وحكى عن بعضهم: أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع من الأرض في الهواء أذرعًا يمرّ ويجيء فيه.

وقال الشيخ أبو طالب المكيّ، رحمه الله تعالى، في كتابه:

«إن أنكرنا السماعَ مجملاً مطلقًا من غير قيد مُفصَّل يكون إنكارًا على سبعين صديقًا، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقربُ إلى قلوب القرّاء والمتعبّدين، إلاّ أنا لا نفعل ذلك؟ لأننا نعلم ما لا يعلمون، وسمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين ما لم يسمعوا».

وهذا قول الشيخ عن علمه الوافر بالسُنن والآثار، مع اجتهاده وتحرّيه الصوابَ، ولكن نبسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار، ونوضّح لهم الفرقَ بين سماعٍ يُؤثّر وبين سماع يُنْكَر. وسمع الشبليُّ قائلاً يقول:

أسائلُ عن سَلمى، فهل مِن مُخْبِرٍ ... يكون لـه عِلْمٌ بهـا أين تنزل

فزعق الشبلي، وقال: لا والله ما في الدارين عنه مُخْبِر.

وقيل: الوجد سرُّ صفات الباطن، كما أن الطاعةَ سرُّ صفات الظاهر، وصفاتُ الظاهر الحركةُ والسكون، وصفاتُ الباطن الأحوال والأخلاق.

وقال أبو نصر السرّاج: أهل السماع على ثلاث طبقات:

فقوم يرجعون في سماعهم إلى مخاطَباتِ الحقّ لهم فيما يسمعون.

وقومٌ يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم، فهم مرتبطون بالعلم ومطالَبون بالصدق فيما يشيرون إليه من ذلك.

وقوم هم الفقراء المجرّدون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوّث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون بطيبة قلوبهم ويليق بهم السماعُ؛ فهم أقرب الناس إلى السلامة وأسلمهم من الفتنة.

وكلّ قلبٍ ملوَّث بحبّ الدنيا فسماعُه طبعٍ وتكلّف.

وسئل بعضهم عن التكلّف فى السماع، فقال: هو على ضربين:

تكلّف فى المستِمع لطَلَب جاهٍ أو منفعة دنيوية، وذلك تلبيس وخيانة،

وتكلّف فيه لطلب الحقيقة؛ كمن يطلب الوجد بالتواجد، وهو بمنزلة التباكى المندوبِ إليه.

وقول القائل: إنّ هذه الهيئة من الاجتماع بدعة!!

يقال له: إنما البدعة المخدورة الممنوع منها بدعةٌ تُزاحم سنةً مأمورًا بها، وما لم يكن هكذا فلا بأس به.

وهذا كالقيام للداخل لم يكن[1]، فكان فى عادة العرب ترك ذلك، حتى نقل: أن رسول الله ﷺ كان يدخل ولا يقام له.

وفى البلاد التى فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتُمد ذلك لتطييب القلوب والمداراة لا بأس به؛ لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور،فيكون ذلك من قبيل العِشرة وحسن الصحبة، ويكون بدعة لا بأس بها؛ لأنها لم تزاحم سنةً مأثورة..

---

(١) يعنى لم يكن القيام فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم.